

الإمام الصدر: بين التغيير الاجتماعي والرؤية العالمية

رائد شرف الدين

منبر القلم في مؤسسات المعهد العربي التربوي

١٦ تشرين الأول ٢٠١٤ | بيروت - لبنان

قائمة المحتويات

- ٢.....الإسلام وأزمة العصر
- ٥.....الإمام الصدر:
- ١١.....الخلاصة: أهمية الفكر الصدري في الوقت الحاضر

١. الإسلام وأزمة العصر

(١) الإشكالية

تشكّل المنطقة العربية رابطة العقد في العالم الإسلامي، ويصح ذلك جغرافياً كما يصحّ تاريخياً وثقافياً. لقد نزل الإسلام على الرسول محمد (ص) بالحرف العربي وفي شبه الجزيرة العربية، ومنها انطلق إلى بقية العالم. لا تزال ديار الإسلام ساحة تفاعل حيوي إضافة لكونها بيئة حاضنة للعديد من التوترات والاتجاهات المتنازعة. تعود بعض القضايا الخلافية إلى السنوات الأولى لظهور الإسلام، واللافت أنها لم تحسم بعد. من تلك القضايا تداول السلطة؛ الفصل بين الدين والدولة، الاجتهاد والتقليد، وغيرها. و ليس الخوض في أيّ من تلك القضايا ترفاً فكرياً، بل أمرٌ على جانب كبير من الأهمية والإلحاح، حيث الحراك السياسي الراهن يمور في لجة الاضطراب والتشّلع وانعدام الرؤية.

يمكن تلخيص تحديات اللحظة بثلاثة ظواهر رئيسية:

- انكفاً النشاط العنفي عن الحواضر الغربية، ويتركز حالياً في الساحات الإسلامية حيث تنتشر مساحات البؤس والإقصاء وتشكل بيئة خصبة لاحتضان تلك المجموعات. علماً بأن نشاط هذه المجموعات يصعب احتواءه في حيز جغرافي محدد؛
- ترنحت أنظمة الاستبداد والتبعية في غير مكان، وانكشف المشهد على ارهاصات مدنيّة ومعارضات جنينية لم تتأطر بعد في بدائل مؤسسية تحمل رؤياً وبرنامج؛
- تبخرت فوائض البترودولار ولم تينع التنمية الحقيقية في أي من بلدان الإقليم الشرق-أوسطي، بل إن تلك الفوائض تساهم اليوم في تأجيج التوتر القائم.

أدت تلك العوامل - وهناك غيرها بالطبع- إلى ملء الفضاء السياسي بكل أنواع الملوثات. ساحات المدن مشغولة اليوم بالهموم الحياتية والأمنية، بالفوضى والقلق، وبمخاطر تفشي الصراع بين الطوائف والمذاهب وانزلاقه تجاه الأقليات. تلاشت تماماً أصوات الحكمة واستبعدت آليات الحوار.

كيف يواجه المسلمون معضلات العصر الحديث؟ وهل يجدون في نصوص الشريعة ما يمكنهم من تدبير شؤون الناس في الإدارة والغذاء والأمن والعمل؟ وهل استشرف أحد الرواد الحواريين مخاطر المرحلة؟ وكيف؟ ولماذا استبشر في لبنان أمانة في أعناق أبنائه ورسالة حضارية إلى العالم؟

٢) عالمية الإسلام

جاء الإسلام لكل الناس حسب دعوة الله للرسول الأكرم (ص): (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء/١٠٧]. كما يقوم المعتقد الإسلامي على فكرة التراكمية والإيمان بمن سبق كشرط لاكتمال الرسالة المحمدية. فالتنزيل مشتمل على كل ما أنزل الله به من يوم آدم وصولاً إلى سيدنا المسيح وختاماً بالنبي محمد (ص) (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [آل عمران/٨٤]. فالرسول (ص) أسلم أمره لله على ملة النبي إبراهيم أبي الأنبياء جميعاً. وهذا يعني أن جميع ما جاء به الرسل من إبراهيم مروراً بإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف حتى موسى وعيسى ومحمد هي رسالة واحدة.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة/١٣٣].

ويقدم الإسلام أيضاً مفهومات عن العمل الذي هو عبادة إذا اقترن بالإخلاص. ومفهومات عن الدنيا والآخرة، وعن الجسم والروح، وعن الخير والشر، وعن الطيبات والخبائث، والحلال والحرام. كما يعين معنى الصلاة والصوم وغيرها من العبادات. وهذه ليست إرضاء لله ولا لإيصال نفع إليه، ولا لدفع غضبه، ولا للإكثار من جاهه، وإنما تحرر من كل ما سواه. "الهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك" [الإمام علي بن أبي طالب (ع)].

هذا وقد أخذت الدعوة إلى الإسلام مناهج متعددة، ولعلنا لا نجازف كثيراً لو قلنا بأن الأكثرية الساحقة من المسلمين الفطريين سوف تعرّف الإسلام على أنه دين محبة وتسامح. وإن كانت الأيام الراهنة وما يكتنفها من قلق وعنف يمكن أن تحرف المفهوم الفطري نحو اتجاهات أخر.

هذا على مستوى المفهوم. أما على مستوى التطبيق وقابلية هذه المفاهيم النظرية لمواكبة الواقع بتغييراته وتطوراتهِ المتسارعة، نلاحظ وجود ثلاث مدارس أو تيارات لتوصيف مدى مرونة الإسلام وقابلية مفاهيمه لمواكبة التغيير والتطور:

- الإسلام الجذري أو الأصولي أو الراديكالي، والذي يقاوم أشكال التكيف والتأقلم والتأويل، ويطالب بالالتزام بحرفية النص وإحياء الطقوس والعادات والممارسات التي كانت سائدة أيام الرسول عند نزول الوحي، والافتداء بها في معالجة شؤون الدنيا والمجتمع والدين؛

- الإسلام المتكيف مع البيئة والظرف، حيث يمكن تبيين التمايز بين الثقافة الأندونيسية والمغربية والتركية. بموجب هذه المدرسة، استطاع الإسلام أن يسم شعوب هذه البلدان دون أن يلغي تقاليدھا أو خصوصياتھا الثقافية والإثنية؛
- والإسلام المنفتح عبر الاجتهاد، وفيه دعوة إلى استنهاض المجتمع الإسلامي من خلال تفسير النص الديني بحيث يستطيع الاستجابة لتحديات الزمن المعاصر وما يفرزه من تشكيلات اجتماعية ومؤسسية وثقافية.

يثير هذا الكباش الذهني- الثقافي سلسلة من الإشكاليات المعرفية والتوصيفية. ولو أردنا تكثيفها في مفهوم واحد أو اثنين، لاستبقينا الاجتهاد والتقليد. حسب جمال الدين الأفغاني، فإن التقليد الأعمى والرتيب لأفعال القدامى يؤدي إلى البلادة والبلاء، وينم عن الغباء والجمود. و يدعو المجدد محمد عبده من جهته إلى تحرير الإنسان من جمود التقليد، ولا بأس عنده من استقاء المعرفة الدينية من أسسها على أن تخضع لميزان العقل الذي ميزنا الله به. فالإنسان - بعقله- يزواج العلم بالإيمان لاستكشاف أسرار الوجود.

(٣) العقل والاجتهاد:

سوف نلاحظ أن الخروج من الإسلام المقيّد زماناً ومكاناً نحو الفضاء العالمي للإسلام، هو انتقال من "قداسة" التقليد نحو آفاق العقل والاجتهاد. وهي فعلاً آفاق متعددة، إذ ستعدد مدارس الاجتهاد وأبوابه، والتي يمكن أن نصنفها لأغراض هذا البحث ضمن مداخل ثلاث. وهي :

- الشريعة المنفتحة ذات النظرة الاجتهادية: والتي بموجبها يحتاج الكثيرون بأن الرسول محمد (ص) أعطى في أيامه عهداً صريحاً لغير المسلمين في المدينة، أي أنه أقرّ لهم بحقوق وتعهد بضمانها. ويذهب الكاتب التركي عبد الرحمن دوا إلى أن القرآن الكريم هو أول دستور مكتوب في العالم؛
- منطقة الفراغ، كما عبّر الشهيد السيد محمد باقر الصدر أي تلك المجالات والموضوعات التي لم تتطرق لها الشريعة. وهي- بحسب المفكر المصري محمد سليم العوا- ما أرادته الشريعة من المسلمين لناحية استجابتهم للتغيرات والظروف والأحداث. القرآن هو مجموعة من المبادئ العامة والخرائط التوجيهية، والتي تعتمد إطلاق حرية الإنسان في معالجة التفاصيل والمعاملات. وليس سهواً أن الشريعة لا تحبذ شكلاً معيناً للدولة أو آليات محددة للحكم، كأنما هي تحث الناس على النمو والتطور والتغيير عبر البحث والاجتهاد؛

- تفسيرات الشريعة (وليس تفسيرها الواحد): الاختلاف والتعددية في الإسلام منصوص عنهما في غير مكان، وهي تعددية على ذات المستوى من التقدير والقيمة بالنسبة للإسلام. وإذا كان الدين الموحى به إلهي وواحد، فإن علوم الدين بشرية ومتعددة. وتعدديتها تتيح وتبرر - في آن معاً - الحوار فيما بينها بما يفضي إلى الارتقاء نحو مراحل أكثر كمالاً في المسار البشري.

"عالمية" الإسلام بديهية في النص: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة/ ٢٥٦] {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود/ ٨١]؛ أما عالمية الإسلام عند بعض المسلمين فمسألة فيها نظر. فـ "العالمي" هو كل ما يتعدى في تأثيره الإطار المكاني أو الزماني الذي نشأ فيه. سوف نلاحظ في مسار الإمام الصدر أن اختياره للبنان ميداناً للعمل نابعٌ من قناعته بصلاحية هذا الوطن الصغير لأن يكون نموذجاً عالمياً لناحية قابلية تجربته للتعميم والتأثير، لا سيما تجربة الحوار والتعايش. لقد تنبّه منذ ستينيات القرن الماضي للمخاطر التي تعصف بنا اليوم. وما تواتر المنتديات التي تتخذ من منهج الإمام الصدر موضوعاً لها إلا تأكيد على ملاءمة ذلك المنهج لمقاربة قضايانا المعاصرة. هو رأى في لبنان رسالة حضارية للعالم، وذلك انطلاقاً من تعدديته العقائدية والثقافية، ونادى باعتماد الحوار أسلوباً لتشييد نموذج إنساني يرنو إلى الكمال. وأرسى منهجاً تشاركياً في التنمية يؤمن بالإنسان وقدراته، بدءاً من استعادة الثقة بالنفس وبالأخرين.

ماذا يقول الإمام الصدر؟

II. الإمام الصدر:

أولاً: المباني الفكرية:

(١) جوهر الدين السلام

يؤكد نبي الإسلام: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". أي أنه آتٍ ليتدخل في الحياة العملية للإنسان، ثم في الحياة الاجتماعية، بل في العلاقات بين الشعوب. الدين الإسلامي يأمر أتباعه بالدخول في السلم كافة، ويجعل تحيتهم سلاماً. والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العليا، تنعكس على الكون وتتجلى في الخلق، فهو سبحانه السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام ودعوته للعالمين السلم والسلام. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً} [البقرة/ ٢٠٨].

وإن كانت تلك المفاهيم وهذه التعاليم قد وجدت مفرداتها في لغة الإمام الصدر، فهي راسخة ومقاصدها غزيرة في الأديان السماوية الأخرى، كما في بعض الأديان والفلسفات الغير سماوية. وبالخصوص أنها تتجه إلى الإنسان الذي من أجله كانت الأديان، أو بالأحرى، من أجل

أن يتأمل ويبحث فيكتشف ويطور... (كانت الأديان واحدة، لأن البدء الذي هو الله واحد، والهدف الذي هو الإنسان واحد، والمسير الذي هو الكون واحد، وعندما نسينا الهدف وابتعدنا عن خدمة الإنسان، ونسينا الله وابتعدنا، وأصبحنا فرقا وطرائق قديداً، وألقى بأسنا بيننا فاختلطنا، ووزعنا الكون الواحد، وخدمنا المصالح الخاصة، وعبدنا آلهة من دون الله، وسحقنا الإنسان فتمزق^٢).

٢) كرامة الإنسان هي الميزان

يتمكن الباحث المتجول في ثنايا الفكر الصدري أن يستخلص شروط الكرامة الإنسانية كما توخاها الإمام الصدر، وسعى إلى تحقيقها. وهي الحرية، الأمن والأمان، العمل، والإنسان كل إنسان، والحق في الانتماء:

• **الحرية:** يعتبر الإمام الصدر أن الإنسان حر التصرف والقرار، وأنه مدعو إلى المعرفة طوال وجوده، ثم يبرر دور النبوة في إيجاد المجتمع الصالح والحياة السليمة، وأن الدين والخير من أمور فطرة الإنسان التكوينية، بينما الخروج عن القواعد العامة هي من المكتسبات، أي تأتي الإنسان من الخارج، وليست ذاتية. وفي أي من أحوال الإنسان، فإن سماحته عندما يعرض للإنسان الذي كرمه الله، ليرى كل ما فيه وكل ما يصدر عنه كريماً، وهذا في عاملين لإنطلاق الأنسان. (فالخطوة الأولى في طريق تربية الإنسان ورفع مستواه في جميع حقول التكامل، في جعله يحس بكرامته، ويهتم بشؤون نفسه، وإلا فسوف لا يولي لنفسه أي إهتمام، ولا يبذل لإصلاح وضعه أي نشاط)^٣. فالحرية هي أفضل وسيلة لتجنيده طاقات الإنسان كلها. ولا يستطيع الفرد بفعالية أن يخدم في مجتمع لا تسوده الحرية.

• **الأمن والأمان:** احترم الإسلام حياة الإنسان وأعتبر من أحيائها كأنه أحياء الناس جميعاً، ومن قتلها متعمداً كأنه قتل الناس جميعاً وجزاؤه جهنم. {من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيائها فكأنما أحياء الناس جميعاً}. [المائدة/٣٢] ويؤكد الإسلام في وجوب حفظ أنفس الآخرين، ويهدد الذين يهملون شؤون فقرائهم وأيتامهم، بحيث يؤدي إلى موت أحدهم فقراً وعجزاً. في الحديث. ويعتبر الإمام الصدر أن رفض الفرد التبعية للأشخاص والشهوات ونوازع النفس هي تحرر جوهرية. كما أن احترام الكلمة المنطوقة والمكتوبة والعهود والشروط والمواثيق هي من شؤون قدسية الكلمة.

• **العمل:** ويعرض الإمام الصدر لأهمية العمل في الإسلام: (فعمل الإنسان هو القوة الوحيدة لتكوين التاريخ ولتحريكه وتطويره دون سواه، فلا دخل للعوامل الخارجة عن سعي الإنسان في تكوين المجتمعات، وتحديد معالمها، كائناً ما كان، بل الإنسان بعمله عن معرفة، أو عن جهل، أو عن إهمال، يختار طريقاً، ويفضل خطأً، ويكون الأمر كما اختار هو لمجتمعه. فالبطل الوحيد على مسرح التاريخ هو الإنسان، يكوّنه ويطوره ويحركه، فيتطور هو ويتحرك ويتفاعل هكذا باستمرار. فعمل الإنسان هو صانع هذه الأحداث كلها، ليس إلا^٤.

• **الإنسان، كل إنسان:** ولذلك ركز الإمام الصدر على أسس تكريم المرأة الإنسان، مع مراعاة القواعد الاجتماعية العامة، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان الذكر. ويعتبر سماحته أن الكرامة الفردية والمجتمعية تتشكل من خلال التربية وتكوين الإحساس بالمسؤولية الفردية والتضامنية.

وصورة الإنسان عند الإمام الصدر لا إطار لها يحدها. إننا إذ نقرأه يتحدث عن الإنسان، وقد قرأناه يتحدث عن الكون، وكأن الإنسان الفرد تحوّل كوناً، ولا يقف الأمر بالإنسان عنده في أنه صورة الكون، بل يرفعه إلى أن يكون وحده صورة لإرادة لا تدركها العقول، موحدة ومحيطة بكل الموجودات والمخلوقات لأنها هي التي أوجدتها وخلقتها.

• **وللإنسان حق الانتماء والاجتماع:** لكل إنسان الحق في أن ينتمي إلى مجموعة إنسانية محددة لها هويتها وكيانها وقيمتها. (إن العمل على أساس المبادئ العامة لا يعتبر سياسة، واعتبره من صميم مسؤولياتي^٥. لست رجل سياسة ولا رجل إدارة، وليس لي اقتراح بديل عن النظام القائم أو عن النظم التي يطالب بها عند مختلف الفتات. فانا رجل دين. ودخولي في هذه المحنة دخول مواطن يشعر بأن وطنه في خطر^٦. لا أؤمن بتصنيف الناس إطلاقاً، ولا أتصرف على ضوء الانتماءات السياسية ما لم تتعرض القيم الأساسية في حياة المواطن للخطر من جراء انتماءاته^٧).

هذا الإنصهار الكامل بين المجتمع وأفراده، تقتضي تشكيلاً ينظم العلاقات، ويحدد المسؤوليات، ويوحد ما بين مؤسسات المجتمع ليكون التوحد في المهام، مدعومة بأخلاقيات العمل من ناحية، ويكون هذا استجابة لعملية الإنصهار تلك، من ناحية أخرى، فيصدق قول الإمام الصدر: (المجتمع هو الإنسان زائد العمل المتبادل مقابل المسؤولية الفردية عن سلامة المجتمع، تأتي مسؤولية الجماعة عن الفرد)^٨.

بين الدين والإنسان، اجتهد الإمام موسى الصدر. واجتهاداته تلك تعبر عن رؤية متكاملة لماهية الإنسان، رحلته في الحياة، وغائية وجوده في المجتمع، بل في الكون.

نجمال هذه الرؤية بأن :

- الدين لخدمة الإنسان، وإن الإنسان هدف الدين وغايته على الصعيدين الفردي والاجتماعي؛
- لا معنى لإيمان الإنسان إذا لم يقترنه بالعمل؛
- جدلية الواقع والإنسان والنص بعلاقة تطويرية تصاعدية؛
- الاجتهاد المستنير المنفتح المواكب للتطور والأمين على روحية النص؛
- الإنسان كل متكامل: بجوانبه الإنسانية المختلفة، أي الفردية والاجتماعية والطبيعية والإلهية.

هذه هي أركان الفكر الصدري، والتي حملها منهج حياة وعمل. فإلى الفكر، امتاز الإمام الصدر بالتزامه بالتطبيق وبضرورة إشهار النتائج وتعميمها. "هو شيد الرؤية، وراح يمشي بها بين الناس فيوقظ النائمين ويستنهض القاعدين ويستمسي الواقفين، ويستركض الماشين. وهو معهم، بل هو منهم، وقد أستطاع أن يحفزهم نحو حاجاتهم وأغراضهم، وأن يطور الرؤية ويكيفها على ضوء هذا التفاعل مع الناس".⁹

هذا الإنسان المتجه دوماً نحو الكمال بحاجة إلى ميدان حركة حيث تتجلى خلافته لله. ولبنان خير مجال لتلمس هذه الحركة. ما الآثار المادية والمأسسة التي تركها لنا على أرض الواقع؟

ثانياً: النموذج اللبناني في العراك المعاصر

(لبنان وطن نهائي لجميع بنيه) هو مستهل ورقة عمل قدمها الإمام الصدر عام ١٩٧٧ إلى رئيس الجمهورية اللبنانية الراحل إلياس سركيس بعد سنتين على اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، لتكون مساهمة منه في استدراج مشاريع إصلاح للوضع في لبنان. ثم اعتمدت هذه العبارة استهلالاً لاتفاق الطائف عام ١٩٨٩. كما وردت في مقدمة الدستور اللبناني المعدل استناداً إلى الاتفاق المذكور. عسى شهادة اللبنانيين جميعاً شعباً ومجلساً نيابياً وحكومة ورئاسة، وإجماعهم على أنها الكلمة الحقة الصادرة عن ايمان حق بلبنان، عساها تكون حجر الأساس في استنهاض لبنان من كبواته.

دأب الإمام الصدر على الإفصاح عما أختاره لنفسه من سبيل. وتالياً، صادق شعب لبنان بمعظمه على تطابق أقوال سماحته بعمله: (المسؤولية الدينية لا تخرجني عن المواطنة وعن مسؤولياتها. إن الإيمان بالله، والسعي لصيانة الوطن، والاهتمام بكرامة الإنسان، هي من

صميم إلتزامات المواطن العادي)¹¹. ويضيف توضيحاً: (عملي والتزاماتي وطاقاتي التي توفرت لدي، هي أمانة الله)¹².

لعلّ حجم البلد الذي اتخذه الإمام الصدر نموذجاً، أي لبنان، لا يتناسب مع صفة العالمية. لكن الفكر الذي حمله وفهم عمقه هو العالمي. ومن عمق فهمه، كانت عالمية الأثر المتوخى وكونية الشغف المبذول. فرؤيته شاملة للإنسان، ووجود الإنسان مترابط بخيوط أو جوانب فردية وطبيعية واجتماعية وإلهية.

(أ) **فراة النموذج:** في لبنان الرسالة يقول: (نتيجة لتوسع المواصلات نشعر أن العالم في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، يعيش كأنه بلد واحد، فأقصى مسافة بين بلد وآخر في العالم لا تتعدى اليوم مسافة الإلتقال بين بيروت وطرابلس. إذن هذا العالم المترابط الذي يضم الأديان، والتعايش بين أبناء العالم من أجل استمرار الإنسان في بناء الدولة الواحدة الكونية مرتبط ومتأثر إلى حد كبير بنجاح صيغة لبنان التعايشية)¹³.

(ب) **جسر حضارة:** (الحوار العربي - الأوروبي، بما لأوروبا من خبرة وتجربة وموقع، وبما للعالم العربي من تراث حضاري وثروات وموقع جغرافي، يضع أمام العالم اليوم أملاً كبيراً ببروز قوى سياسية لولها الحوار المسيحي - الإسلامي، فإذا سقطت تجربة لبنان سوف تظلم الحضارة الإنسانية لمدة خمسين عاماً على الأقل، لذلك نقول إن لبنان في هذه الفترة ضرورة حضارية أكثر من ذي قبل)¹⁴. بالمقابل، هناك صورة إنسان لبنان، الإنسان الذكي المغامر، المجرب، المنتشر في كل بقاع المعمورة، والعلاقات التي شكلها الإلتشار في السياسة والإقتصاد والعلم والفن، وما يمكن أن يستثمره لبنان المقيم والمهاجر من موقع محرك ومتحرك كما وصف سماحته بأنه لولب فيما لو وحد طاقاته وعلاقاته بين الداخل والخارج، لأنّ حالة حضارية مميزة في مجموعها الثقافي المتعدد، والتجارب التاريخية الغنية.

(ج) **نعمة الطوائف ونقمة الطائفية:** لطالما ردّد وشدّد على وحدة لبنان أرضاً وشعباً! هذا اللبنا الذي يعد حالياً أربع ملايين نسمة موزعة على ثمانية عشر طائفة منها ثلاث طوائف تتعدى بمجموعها مليونين ونصف، ويبقى مليون ونصف موزعة على خمسة عشر طائفة، بمعدل مائة ألف لكل طائفة. والملايين الأربعة منقسمة إلى يمين ويسار، وكل قسم له جماعته ومنطقة نفوذه في مساحة لبنان التي بالكاد تتجاوز عشرة آلاف كيلو متر مربع! وبالنسبة للإمام الصدر، الطائفية ما وضعت كدين قائد للحكم، ولكن تقسيم للناس. وعلى هذا الأساس، فالطائفية في لبنان بحث سياسي، وليس بحثاً

ديناً، وعليه يناقش الموضوع على الصعيد السياسي. (أمانة الله هي الإنسان. حفظاً لهذه الأمانة مع كل ما أنعم الله عليها من قدرة وكفاءة وإمكانية ذهنية وجسدية وعاطفية وحركية. ولهذا نجد الإمام الصدر وهو يعري الطائفية السلبية يقدم لنا التعايش صورة حياة للإنسان اللبناني دون تمييز في عقيدته أو مهنته أو منطقته.

(د) **تعايش أبنائه رسالة:** ولقد كان من أسس إقامة المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، أن يعمل لتنظيم طاقات الطائفة ووضعها في المسار العام للمجتمع. إذ أنها كانت مشتتة بين قوى متنازعة دون رابط يحفظ لها الجهود ويؤطرها نحو الآخرين. (التنظيم سيؤدي إلى تنسيق الطاقات وتجنيدتها ومنعها من الهدر والإصطدام)^٤. وبعد أن يعدد أهداف التنظيم ومهامه، يضعه في المكان الذي يتيح خدمة لبنان، رأى أنه (يسهل مهمة التوحيد الكامل عن طريق الحوار، والتفاهم والتقارب ولا حوار إلا بين الممثلين الحقيقيين). (إن أكثر الناس تعصباً للطائفية في لبنان هم أبعدهم عن التدين. (التعايش ليس ملكاً للبنانيين، لكنه أمانة في يد اللبنانيين ومسؤوليتهم وواجبهم وليس حقهم. تمسك بوحدة لبنان ونحافظ عليها وعلى استقلال لبنان وعلى انسجام لبنان مع المنطقة، وعلى صيانة هذا الكيان الذي هو أمانة للحضارة العالمية)^{١٥}.

(هـ) **المهاجر المقيم:** لطالما حرص الإمام الصدر على التواصل مع المهاجرين في دنيا الاغتراب، تقديراً لما يمثلونه من ثروة حقيقية للبلد ومسعفاً لأبنائه إن لناحية احتواء الاحتقانات الداخلية وفي مقدمها البطالة والفقر، أو لناحية تأمين شبكة حماية كونيّة ومنبراً عالمياً لإثارة قضايا لبنان في المحافل الدولية. وأضحت الهجرة عموماً عنصراً أساسياً في العلاقات الدولية والتكامل الأممي لتنامي أثرها الاقتصادي والثقافي في بلدان المصدر والمقصد. وفي الحالة اللبنانية، يمثل المهاجرون لبنان الحقيقي أي لبنان الكوني، بتركيبته البشرية ومكوناته العقائدية والفكرية والإنسانية التي تجعل منه نافذة أمل تتطلع من خلالها البشرية إلى الخلاص. وهذه واحدة من الدروس التي علمنا إيّاها الإمام المغيب السيد موسى الصدر.

(و) **قدر لبنان بيد بنيه، إذا شأؤوا:** وحتى يكون لبنان الرسالة، فعلى اللبنانيين أن يتحسسوا المعالم ابتداء من تحسس شروط المواطنة (أما إذا تم الوفاق الوطني ودخلت الإرادة والرؤية اللبنانييتين في الساحة، فإن المستقبل يصبح حتى في أبهى صورته رهن أيديهم. لا يمكن أن نكون قديرين فالتاريخ لا يقبل لنا ذلك ولا الإيمان مصدر العقل المبدع ولا القلب الدافئ يسمح به^{١٦}.

(ز) **لبنان العربي الحر المستقل:** نظرة الإمام الصدر للبنان هي الفاعل والمتفاعل مع محيطه. (نريد لبناناً عربياً، لا جسماً غريباً في المنطقة يأخذ ولا يعطي. أو يعطي ولا

يأخذ. بلداً متفاعلاً مع أشقائه، يتحمل معهم مسؤولياته العربية، ويشارك في المصير العربي، ويتمتع بكامل مزاياه. نريد الخروج من النفاق السياسي والتقزم الوطني بحجة عدم التمحور، نريد التخلص من السلوك وراء شعارات ذات معانٍ متعددة. نريد لبنان العربي الحر المستقل^{١٧}.

١١١. الخلاصة: أهمية الفكر الصدري في الوقت الحاضر

يستطيع المتتبع لتطورات الأحوال في الدول العربية (والإسلامية استطراداً) أن يلحظ تنامي الهواجس على أكثر من مستوى:

- كيف ستمكن هذه المجتمعات من تجاوز حقبة العنف، والانتقال إلى أوضاع تحفظ حقوق الناس في الحياة والكرامة والحرية؟
- تنامي القلق على أوضاع المكونات الضعيفة، كالنساء والأقليات الدينية والعرقية؛
- تشلّع المجتمعات والشعوب في لجة المصالح الدولية التي تتجاذب هذا الطرف أو ذاك؟

وفي نظر الكثيرين، يتشعب السيناريو الأسوأ إلى خطرين كبيرين:

الأول: الهجرات الجماعية لمسيحي الشرق، وإفراغه من مكوّن حضاري هو دليل البشرية أو خشية خلاصها تجاه شؤم "صراع الحضارات"؛

والثاني: الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وما تثيره من كوابيس لها جذورها العميقة في الثقافة والذاكرة، ولها مضاعفاتها المدمرة على المجتمعات والشعوب الإسلامية.

لم تكن هذه الهواجس بعيدة عن ذهن الإمام الصدر. ولعلّه زرع ذاته في لبنان لأن في هذا الأخير معظم المسوغات والشروط والفرص التي تنفي تلك المخاطر أو تتيح دحضها على أقل تقدير، بل كأن لبنان بتاريخه وتركيبته وتجربته هو نقيض الأحداث المريعة التي تعصف بالمنطقة. إنّه الترياق. وهو لم يكن يشاغف ترفاً فكرياً أو يمارس رياضة ذهنية في حقل تجارب أسمه لبنان، بل كافح لإثبات أطروحته بلا هوادة، وبكل ما أوتي من طاقة.

- المتصفح لواقع الطائفة الشيعية في لبنان منتصف القرن الماضي، يجدها تحت وطأة التهميش والانكفاء والياس. ثم جاءها الإمام الصدر ليحبر بها نحو استشعار الثقة بالنفس وبناء الذات، وبما يمكنها لاحقاً من الثقة بالآخرين لينبؤوا معاً الوطن النموذجي يحملونه هدية إلى عالم ما فتأ يتصدّع. وهو تفادى تشكّل ذات عصبوية متوترة، بل

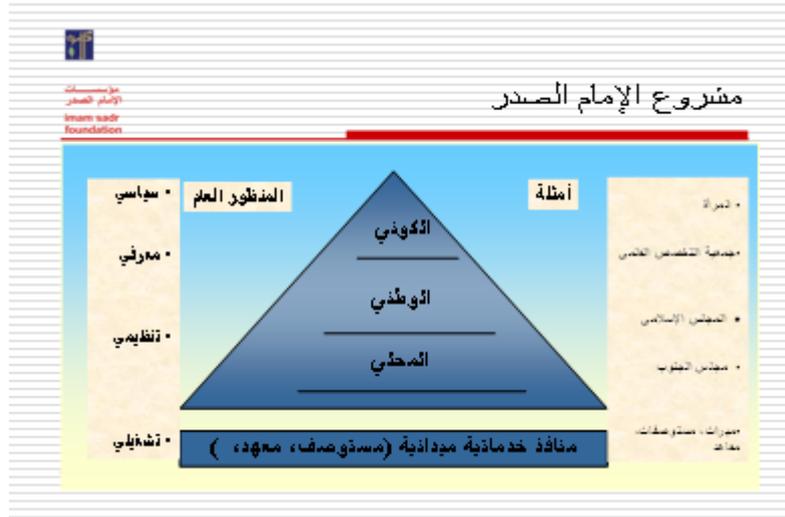
ارتقى بمنهجه إلى تشكيل ذات متواصلة ومتشاركة في بناء وطن أسسه الكرامة والعدالة والمشاركة.

- لا شك أن توسّل الحق والعدالة والكرامة في بناء المجتمع والوطن والدولة، لا يعني الانغلاق دون الآخرين ولا إمامة الدولة ولا تشييع المجتمع. لقد قام الإمام الصدر باستدعاء ما يختزنه المحرومون من محتويات اللاوعي والوجدان من غبن تاريخي وإهمال مزمن ورفض للإقصاء وغيرها من المظالم السلبية، ونجح في تحويلها إلى طاقة إيجابية تمثلت في الحماس الثوري المؤطر ضمن إرادة التغيير نحو المجتمع الفاضل والفاعل في الحضارة الإنسانية.

- حرص الإمام الصدر ليس فقط على مشاركة الناس في مشروع التغيير، بل على تمثلهم لهذا المشروع وإشهار موافقتهم عليه (مهرجان بعلبك ومهرجان صور عام ١٩٧٤ نموذجاً)؛ وهذه الممارسة هي ما يفيد الجماهير المتحركة في المدن العربية اليوم. هي بحاجة إلى القيادة المعروفة، واضحة الأهداف، والحريصة على نيل شرعية الناس ودعمهم.

- وعلى تعددية المرجعيات الشيعية عبر العالم، معطوفة على مفهوم الاجتهاد وما يتيح من آفاق التكيف والتجديد، فبالإمكان فتح كوة في معضلة السلطة والزعامة وآليات الحكم. وتجربة الإمام الصدر لم تكن يوماً عصية على الإلهام والتجريب. فهو -على تصديه الواضح للعمل السياسي- لم يطرح نفسه محترفاً يمارس السلطة بمعناها التقني؛ بل مارس حقه كمواطن في القيادة والتشديد والضغط لوضع الإصبع على مكامن النزف والهدر والتمييز، وعمل على تعزيز المواطنة بركنيها الحقوق والواجبات؛

أخيراً، وبالعودة إلى عنوان البحث في عالمية الإمام الصدر ، يمكن تمثيل الإسهام الذي أتى به على هيئة هرم متعدّد الطبقات، وهو نموذج تمّ تطبيقه في قسم الدراسات التابع لمؤسسات الإمام الصدر- لبنان^٨ :



- في الأسس القاعدية للإنجاز، نجد بالمنظور التشغيلي كلّ المنافذ الخدماتية الميدانية بين مستوصف ومعهد ومبرة ومدرسة؛
- بالمنظور التنظيمي، تجلّت الإسهامات المحليّة للإمام الصدر في العديد من البنى المؤسسية التي أدارت تلك المرافق أو أنها تولّت إدارة حاجات مناطقية وظرفية، مثل مجلس الجنوب؛
- في طبقة أعلى، يجد الباحث آليات الضبط والمحاسبة والمشاركة، وما تلازم معها من موائيق وعرائض وبرامج عمل، وكلّ ما يندرج في مستوى الحكم الصالح (حسب مفردات اليوم)؛
- بالمنظور المعرفي، وفي مستوى يجمع بين الوطني والعالمي، يعتبر إرث الإمام الصدر معيناً معرفياً مهماً. وعلاوة على منهجيته العلمية المتمثلة في تفحص الإحصاءات والدراسات وتقييم الحاجات وقياس تأثير المشاريع؛ فقد امتاز بحضور واسع وكاريزما تواصل قلّ نظيرها. وقد أمكنه توظيف موهبته ومهارته وعلمه في تعميم خبرته ونتائجها على شتى المستويات الفكرية والعملية، النخبوية والشعبية على السواء؛
- ختاماً، نصل إلى الجوهر العالمي في قمة الهرم. وذلك بمجرد أن نستخدم المنظور السياسي لتقييم وتفحص القيمة التي أضافها الإمام الصدر على التجربة الإنسانية. بإمكان الباحث أن يستخلص، من كل المستويات السابق ذكرها، ما يصلح لأن يأخذ بعداً عالمياً، أو يستحق تجربته في مكان آخر. نقول بإيجاز شديد أن منهجيته في أن يتولى الناس تحديد حاجاتهم الحياتية ويتمكنوا من حلّها بأنفسهم هي بيت القصيد. والناس بالنسبة إليه كانوا المرأة والرجل، وهذه إضافة جوهرية في الأرياف والحوضر الشرقية. ينجم عن هذه المشاركة حالة من الإحساس بالرضى والثقة بالنفس، وهي الشرط الضروري للثقة بالآخرين تمهيداً للعمل معهم، والتلذذ بإنجاز التقدّم نحو الأفضل. يتيح هذا التقدّم، بل يعزّز قيم المشاركة والحوار والاعتراف بالآخر، بما

يفضي إلى تعزيز فرص السلم والتعاون. ويصح هذا على مستوى العائلة والمشروع المحلي، كما على مستوى العلاقات بين الطوائف والدول والشعوب. وخيار الإمام الصدر أن يكون لبنان هو المصداق على صحّة أطروحته في تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هو الحلم الصعب التحقق.

جمال الحلم كان وسيبقى في جسامته التحديّ.

وشكراً.

قائمة المراجع

¹ Kurzman, Charles; Liberal Islam, Oxford University press, 1998 (pp. 5-9)

² من عظة الصوم للإمام الصدر في كنيسة الكبوشية - بيروت في ١٩٧٥/٢/٢٠ (موقع مركز الامام موسى الصدر للأبحاث والدراسات imamsadr.net)

³ الإسلام وكرامة الإنسان، محاضرة للإمام الصدر في الجامعة الأمريكية في بيروت بتاريخ ٩٦٧/٢/٨ ، مرجع مذكور

⁴ الإسلام وكرامة الإنسان، مرجع مذكور

⁵ المقاومة والنظام والشيعة، حوار صحفي (مجلة كل شيء) بتاريخ ١٩٧٣/٦/٣٠

⁶ الجنوب بين الدولة وممثليه، حوار صحفي (صحيفة الجمهورية) بتاريخ ١٩٧٠/٤/٦

⁷ تيار الإمام وحركة المحرومين، حوار صحفي (جريدة الأنوار) بتاريخ ١٩٧٦/١٢/٢٧

⁸ العدالة الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام imamsadr.net

⁹ منبر ومحراب، حسين شرف الدين، بيروت

¹⁰ حركة المحرومين، الإقطاع وإسرائيل، حوار صحفي مع الإمام الصدر (جريدة الأنوار) بتاريخ ١٩٧٥/١/٢٢

¹¹ الحركة والثورة، حوار صحفي مع الإمام الصدر (البقظة الكويتية) بتاريخ ١٩٧٥/١/١٣

¹² لبنان والحضارة الإنسانية، حديث مع وفد نقابة المحررين في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بتاريخ ١٩٧٧/١/١٧ (imamsadr.net)

¹³ لبنان والحضارة الإنسانية، حديث مع وفد نقابة المحررين، مرجع مذكور

¹⁴ كلمة الإمام الصدر إثر اجتماع الهيئتين التنفيذية والتشريعية وانتخاب الإمام الصدر رئيساً للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بيروت، دار الافتاء الجعفري، بتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٢، الصحف اللبنانية

¹⁵ لبنان والحضارة الإنسانية، مرجع مذكور

¹⁶ أسس الحوار الوطني، حوار صحفي (جريدة النهار) بتاريخ ١٩٧٨/١/٣١

¹⁷ بيان للإمام الصدر لمناسبة مرور سنة على الحرب الأهلية. منشور في جريدة النهار ١٩٧٦/٤/١٧

¹⁸ نموذج التنمية الشاملة في تجربة مؤسسات الإمام الصدر، رائد شرف الدين، محاضرة في مؤتمر "كلمة سواء" العاشر بعنوان "التنمية الانسانية ابعادها الدينية والاجتماعية والمعرفية"، بيروت، ٢٠٠٥